

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل



بقلم  : السيد محمد باقر السيستاني

ولا يغيبن عنك أن ما سبق من ولاية   سبحانه لعبده ولزوم توكله عليه وحسن ظنه به لا يقتضي أن يترك المرء التمسك بالأسباب التي جعلها تعالى للأشياء، فإن ذلك جهل بمواضع الأمور، فإنه تبارك وتعالى هو الذي خلق هذه الأسباب وجعلها وصلة إلى آثارها، وبنى عليها هذه النشأة الدنيا، فلا بد للمرء أن يتوصل في مقاصده الصحيحة الدنيوية والأخروية إلى ما جعله   تعالى من أسبابها بمقدار جهده، من غير نقص للقيم الفاضلة، ثم يتكل في ما يتفق له عليه سبحانه.

وقد روي أنه جاء رجل إلى رسول   (ص) فقال: يا رسول   أرسل ناقتي وأتوكل أو أعقلها وأتوكل؟ قال: (اعقلها وتوكل).

وعلى ذلك جرت سُذَّبة ا سبحانه مع عباده الصالحين — حيث أمرهم بتبليغ الرسالة والاجتهاد فيها ووعدهم بالنصر والغلبة، ولم يبلغ في حقهم التمسك بالأسباب — من القتال والاحتجاج والاختفاء وسائر وجوه التدبير، حتى إذا أعوزهم ذلك كله أدركتهم العناية الإلهية متممةً لهم ما جهدوا فيه، حتى حقق نصره وأظهر رسوله، وفي ما أخبر به ا تعالى من سيرته مع نبيه الخاتم (ص) وسائر الأنبياء من قبل في القرآن الكريم ما يكفي دلالة على ذلك.

ومما يندرج في هذا الباب استيفاء المرء في تشخيصه لما هو الصواب في أفعاله وأقواله لما يدركه العقل، من خلال ما مكنه ا سبحانه من أدواته من التأمل والتفكير والتتبع والاستقراء والمشورة والانتصاف من النفس وغيرها، ويسأل ا تعالى أن يوقع في قلبه ما يشاء ويختار له ما هو خير له، ولو اعتمد على الاستخارة بدلاً عن التعقل والمشورة فقد تمسك بالتوكل قبل بذل الجهد في السبب، فإن لم يجد استجابة لطلبه فلا يلومن إلا نفسه.

وعليه فإن على المرء أن يتوسل في جميع غاياته المشروعة والصحيحة إلى ما جعله ا سبحانه وتعالى من الأسباب، بلا فرق بين أموره الدنيوية من قبيل الرزق والعافية والزواج والمكانة، أو أموره الأخروية من البصيرة الثاقبة والأعمال الصالحة والدرجات العالية والتوبة النصوح وغيرها، ثم يتوكل على ا سبحانه في أن يكتب له ما هو خير ورضاه، ويحسن الظن به في تقدير المصلحة له فيها في حاضرها وعواقبها كما عهد إنعامه عليه قبل معرفته له، وإحسانه إليه قبل إقراره به، وقد قال عزّ من قائل : (أَلَيْسَ ا بِكَافٍ عَبْدَهُ) وقال : (وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ لَأُغْنِيَنَّ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ حَيْثُ كَانَ) (سورة التوكل: 1-2).
ا بِالْبَيْتِ الْمَقْدِسِ أَمْرُهُ).

???? : (أصول تزكية النفس وتوعيتها، ص107).

✍️: السيد محمد باقر السيستاني.